الفصل الثامن

الحياة الاقتصادية

- الزراعة.
- الصناعة.
- التجارة.
- النظام المالى.

obeikandl.com

obeikandl.com

الحياة الاقتصادية

الحياة الاقتصادية من زراعة وصناعة وتجارة كانت مزدهرة ازدهاراً عظيما فى الدولة الإسلامية .

الزراعـــة

كانت الدولة الإسلامية المترامية الأطراف تضم كثيراً من الأقاليم التى تعد من أخصب بقاع العالم، كمصر، والشام، والعراق، وخراسان، وما وراء النهر، وسجستان، وبعض مناطق من شمال إفريقية .

وقد ساءت الأحوال الاقتصادية فى هذه الأقاليم قبل الإسلام بسبب الحروب المتوالية بين الدولتين الكبيرتين: الرومانية والفارسية . وقد ترتب على تلك الحروب .

١– قلة الأيدى العاملة فى الزراعة، وإهمال شئون الرى، مما أدى إلى قلة المحاصيل الزراعية .

٢– كثرة الضرائب والقسوة فى جبايتها، لتغطية نفقات هذه الحروب المتلاحقة الطاحنة .

ولما فتح العرب هذه البلاد اتجهوا إلى تحسين أحوالها الاقتصادية، وكان مظهر هذا الاتجاه بالإضافة إلى كثرة الأيدى العاملة هو :

١– إصلاح وسائل الرى وتنظيمها؛ فبنوا السدود، وشقوا القنوات والأنهار، وأقاموا عليها الجسور والقناطر، وبذلوا فى سبيل ذلك أموالا طائلة، واستخدموا لها عدداً كبيراً من العمال، حتى إن عمرو بن العاص استخدم نحو ١٠,٠٠٠ عامل فى إصلاح طرق الرى فى مصر صيفاً وشتاء، وقد زاد اهتمام العباسيين بذلك؛ ففى صدر دولتهم جددوا حفر القنوات القديمة، واستحدثوا قنوات جديدة، وخصوصاً فى

العراق، حتى أصبح ما بين النهرين: دجلة والفرات أشبه بشبكة من القنوات والأنهار، واطلقوا عليها اسم «النواظم» لأنها نظمت توزيع المياه.

«وبذلك أعاد العباسيون إلى العراق شهرته القديمة في الخصب والنماء، ولا سيما الجزء الجنوبي المعروف بالسواد». وكان للرى تشريعات دقيقة معقدة، استفاد منها الأوربيون فيما بعد، حتى إن الجزء الأكبر من تشريعهم الخاص بالماء مقتبس منه، وكان من واجبات الدولة في العراق أن تسهر على صيانة السدود والمسنيات، والبثوق، وكان ثم لهذا الغرض طائفة قائمة بذاتها من العمال يسمون المهندسين، وكان في مرو ديوان يسمى «ديوان الماء» وكان صاحبه يرأس عشرة آلاف عامل، وكان منصبه من أرقى المناصب في تلك المدينة. وكان الماء يقاس بمقياس مصطلح عليه يسمى (البست) ... وكان مقياس ارتفاع النهر عبارة عن لوح مقام على النهر مشقوق شقًا طوليًا تتحرك عليه شعيرة»[1].

٣- زرعوا كل نوع من النبات في التربة الصالحة له بعد أن درسوا صلاحية كل تربة لأنواع النباتات، وبذلك أمكن استغلال الأراضي الزراعية أحسن استغلال.

٣- اعتنوا بتسميد الأرض عناية كبيرة بعد أن عرفوا السماد الصالح لكل نوع من النباتات؛ فزاد محصول الأرض تبعاً لذلك زيادة واضحة.

٤- عرفوا التلقيح، فكان أهل فلسطين يلقحون كرومهم وأهل المغرب يلقحون تينهم كما يلقح النخيل بالطلع الذكر، كذلك عرفوا تطعيم بعض الأشجار من بعض، واستخرجوا أصنافاً جديدة.

٥- جلبوا إلى بلادهم أنواعاً كثيرة من الأشجار، وبرعوا في تنسيق الحدائق، وعنوا عناية عظيمة بالأزهار، فزرعوها في مزارع واسعة؛ لتصدير عطورها وأدهانها ومياهها، وراجت من أجل ذلك في شيراز، ودمشق، وغيرهما صناعة استخراج الأدهان العطرية من الورد والنيلوفر والبنفسج وغيرها.

٦- أدخلوا إلى أوربا نباتات لم تكن معروفة لهم من قبل، كالأرز، وقصب السكر، والزيتون، والمشمش.

٧- زرع الفرس قصب السكر، وصنعوا منه السكر، ثم انتقل منها إلى مصر،

---

(١) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجرى للأستاذ آدم متز جـ ٢ ص ٣٢٩ - ٣٣٠.

وسواحل الشام حيث عرفه الصليبيون فيما بعد، ونقلوه وصناعة السكر إلى أوربا[1].

الحاصلات الزراعية :

كانت الحاصلات الزراعية كثيرة متنوعة، منها:

١- الحنطة: وكانت تزرع فى كافة البلاد التى يكون فيها الماء موفوراً . وهى أكثر ما يزرع فى العراق، ولها المكان الأول فى بلاد خوزستان .

٢- الذرة : وكانت تزرع فى الأجزاء الجافة فى جنوب الدولة كجنوب جزيرة العرب، وبلاد النوبة، وكرمان، وجنوبى مصر .

٣- السمسم: وهو يزرع فى كثير من البلد التى تزرع فيها الذرة .

٤- الأرز : وهو يزرع حيث يكثر الماء؛ فكان يزرع فى خوزستان ومازندران، وغيرهما، وكان خبز الأرز غالباً فى طعام أهل مازندران، وهى بلاد تحيط بها المستنقات .

٥- الكرم: وهو أكثر ما يزرع من الفواكه، وكان منتشراً فى جميع البلاد، وله فى العراق المقام الأول، كما أنه يكثر فى أرمنية وأزربيجان، وأكبر ما تكون أشجاره فى اليمن، وكانت أصنافه كثيرة متنوعة .

٦- البطيخ: وكان أكثر ما يباع من الفاكهة فى الأسواق، لذلك كان سوق بيع الفاكهة يسمى دار البطيخ، واشتهر شمالى فارس بنوع خاص بصحة الفاكهة، وجودة البطيخ، وبلغ من جودته، وصحته أنه كان يقدد ويحمل إلى العراق، ولم يعلم أن ذلك ممكن فى غير تلك البلاد، ويؤيد الرحالة ماركوبولو ذلك بقوله: «إن بطيخ مدينة شبرقان «بين مرو وبلخ» كان يقطع حلقات رقيقة كما يفعل الأوربيون بقاوون الشهد، وبعد أن تقدد وتجفف فى الشمس ترسل بكميات كبيرة لتباع فى البلاد المجاورة» .

وكان بطيخ مرو يرسل إلى الخلفاء ببغداد طازجاً؛ فكان يحمل إلى المأمون أولا، ثم إلى الواثق فى قواليب الرصاص معبأة بالثلج، وكانت تقوم الواحدة منه إذا سلمت، ووصلت بسبعمائة درهم .

---

(١) راجع الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى للأستاذ آدم متز جـ ٢ ص ٢٩٩ ، ٣٣٨ وما بعدها .

٧- التفاح: وكان أحسن أنواعه تفاح الشام، حتى ضرب المثل به فى الحسن، وجودة الطعم .

٨- الرمان: وكان ذا أهمية، حتى إن سفنا كثيرة كانت تسير فى الفرات محملة إلى بغداد .

٩- التمر: كانت العراق، وكرمان، وشمال أفريقية، وبخاصة مدينة سجلماسة فى جنوبى مراكش أكبر المراكز لإنتاج التمور، والعراقى أجود أنواعه، وكان من الكثرة فى كرمان إلى حد أنهم كانوا لا يرفعون ما تساقط من النخل، وربما بيع فى بعض بلادها مائة مَنٍّ بدرهم، وكان رسم الحمالين أنهم كانوا يحملونه إلى خراسان مناصفة .

١٠- الزيتون: هو من نباتات إقليم البحر الأبيض المتوسط، وكانت الشام، وشمال أفريقية تمدان المملكة الإسلامية كلها بالزيت، وأحسنه ما كان يأتى من الشام ولا سيما مدينة نابلس، وكان بمدينة سفاقس فى القرن الرابع الهجرى من الزيتون ما ليس بغيرها، حتى ربما كان يباع ستون أو سبعون قفيزا بدينار، ولا تزال شجرة الزيتون تلقى من العناية فى هذا الإقليم ما لا تلقاه فى أى بلد آخر من بلدان البحر الأبيض المتوسط .

١١- قصب السكر: وكان يزرع فى جميع البلاد التى يمكن زراعته بها فكان يزع فى كابل، وصور، وخوزستان، والأندلس، ومصر التى صار من أهم مزروعاتها فى القرن الخامس وما بعده .

١٢- النيل: وهو مادة أساسية فى الصباغة باللون الأزرق، ومن ثم كان عظيم القيمة، وبسبب هذه القيمة كان يزرع فى كل قطعة تصلح لزراعته؛ فزرع فى صعيد مصر، والواحات، وفلسطين، وكرمان، وكابل وكان له فيها شأن؛ حتى إنه كان يباع فيها، وفيما حولها فقط، كل سنة ما تبلغ قيمته ألف دينار، وكان شجره بمصر يحصد فى كل مائة يوم، ويبقى فى الأرض الجيدة ثلاث سنين .

١٣- الزعفران [١] : وكان يستعمل للتلوين باللون الأصفر، ولعظم قيمته كان يزرع فى كثير من البلاد كالشام، وجنوبى فارس، والمغرب، وكانت طليطلة «من بلاد المغرب» تصدر منه مقادير كثيرة إلى كثير من الجهات .

١٤- الكتان: وكان يزرع بكثرة فى مصر، وكانت الفيوم أكبر مكان لزراعته .

١٥- القطن: وكان يزرع فى فارس، وفيما بين النهرين، وبلاد ما وراء النهر التى كانت تنتج منه كميات كبيرة، ثم انتشر فى القرن الرابع فى شمال أفريقية والأندلس .

---

(١) العربى يسمى الورس، وهو يشبه السمسم ويكون فى اليمن .

الصناعـــة

أحسن المسلمون الاستفادة من ثرواتهم المعدنية، والطبيعية المختلفة، وأتقنوا الكثير من الصناعات واشتهروا بها، ومن ذلك :

١- الحديد : ويوجد فى كرمان، وكابل، وفارس، وإفريقية، وكانت الوطن الأول له[١] وصقلية، وفرغانة التى برع أهلها فى صناعته وتفتقت لهم الخواطر بغرائب اتخذوها منه، وكانت فارس أكبر إقليم لاستخراج الحديد وصناعته .

٢- النحاس الأصفر: وكان معدنه فى أصفهان وبخارى، ونحاس بخارى كان يستعمل فى طلاء أعلى المنائر .

٣- الذهب والفضة . كانت أجزاء المملكة الإسلامية يكمل بعضها بعضاً من هذين المعدنين النفيسين على نحو جميل، فكان المشرق يهيئ الفضة والمغرب يأتى بالذهب، وكانت معادن التبر[٢] فى شرقى النيل بين أسوان وعيذاب، وكان أكبر معدنين للذهب فى العلاقى على مسيرة خمسة عشر مرحلة من أسوان[٣] ، وكان المعدن الثانى فى السودان، وأكبر معدن للفضة كان فى الشرق بمدينة بنجهير[٤] فى بلاد هند كوش[٥] .

---

(١) وبخاصة المنطقة التى تعرف الآن باسم « بندوف » فيها أغنى مناجم الحديد فى العالم كما أفصحت عن ذلك الصحف حينما وقع الاشتباك بين المغرب والجزائر .

(٢) التبر بالكسر الذهب والفضة أو فتاتهما قبل أن يصاغا . . القاموس .

(٣) كانوا يتجولون فى الليالى التى يضعف فيها ضوء القمر، ويعلمون على المواضع التى يرون فيها شيئا مضيئا؛ فإذا أصبحوا حملوا أكوام الرمل التى عليها . ومضوا بها إلى آبار هناك، فغسلوها بالماء ، واستخرجوا التبر – الحضارة الإسلامية للأستاذ آدم متز جـ ٢ ص ٣١٤ .

(٤) كانوا يتتبعون عروقا يجدونها تدلهم على الجوهر، وكان جبل المدينة وسوقها كالغربال من كثرة الحفر – المصدر السابق ص ٣١٦ .

(٥) قال ياقوت فى معجمه : بنجهير مدينة بنواحى بلخ بها جبل الفضة، وهو يشرف على المدينة .

٤- السكر: كانت صناعته قائمة فى خوزستان، وإقليم البصرة، والأندلس، وكان أكبر مركز لصناعته إقليم خوزستان، وخصوصاً مدينة جنديسابور، حتى قيل إن عامة سكر خراسان منها، كما أن إقليم البصرة أشهر مكان لصناعته فى العراق (٤).

٥- الحرير كان يوجد فى خوزستان، وطبرستان، وكانت أنواع الحرير من ديباج وخز تصنع فى إقليم خوزستان التى كان بها أكبر مصانع لنسج الحرير، أما صناعة الإبريسيم فكانت متركزة بمدينة مرو «من إقليم طبرستان»، ومنها كانت تصدر إلى جميع الآفاق.

٦- القطن: كان يزرع فى فارس، وفيما بين النهرين، وكرمان.

وكانت المراكز الكبرى لصناعة القطن فى مرو، ونيسابور، (شرقى فارس)، «وبم» (شرقى كرمان).

وكانت كابل تصدر ثيابا من القطن مشهورة بحسنها إلى الصين، وخراسان، وكان يصنع فى مرو القطن الذى يبلغ الغاية فى اللين كما عرفت «بم» بالثياب القطنية الفاخرة، وكان من طرائف ما يصنع بها الطيالسة.

٧- الكتان: الكتان هو النسيج الذى اختصت به مصر، وكانت الفيوم أكبر مكان لزراعته، وكان يصدر إلى كثير من النواحى، وربما وصل إلى فارس، وكانت الأجساد المحنطة تلف دائما بنسيج من الكتان.

وكان المركزان الكبيران لصناعة نسيج الكتان هما: الفيوم، وبحيرة تنيس بنواحيها، وهى: مدينة تنيس، ودمياط، وشطا، ودبيق، التى كانت أكبر المدن التى تصنع النسيج، وإليها كان ينسب أجود أنواع الأقمشة وهو المسمى بالدبيقى.

ونبغ أهل تنيس فى صناعة ثياب فخمة تسمى البدنة، وكانت تصنع للخليفة ولا يدخل فيها من الغزل - سدى ولحمة - غير أوقيتين، وباقيها بالذهب بصناعة محكمة لا تحتاج إلى تفصيل ولا خياطة، وتبلغ قيمة الثوب ألف دينار، كما كانت

---

(١) الحضارة الإسلامية للأستاذ آدم متز جـ ٢ ص ٣٠٥.

تصدر للعراق وحدها من الأقمشة ما قيمته عشرين أو ثلاثين ألفا، وكان يصنع بالفيوم الستور الثمينة التى يبلغ طول الستر منها ٣٠ ذراعا، أو أكثر، وقيمة الزوج منها ٣٠٠ دينار .

وكان فى الإسكندرية نوع من ثياب الكتان يسمى الشرب يباع كل وزن درهم منه بدرهم من الفضة .

وبالجملة فقد ارتقت صناعة النسيج، حتى أمكن صنع بعض الأقمشة الصوفية أيضا، فكانت تصنع بمدينة طحا بشمالى الصعيد ثياب الصوف الرفيعة .

٨- العطور : قامت صناعة العطور بفارس والعراق، وقد ازدهرت بأقليم سابور من أعمال فارس، وصار هذا الإقليم يشبه الريفييرا الفرنسية وكانت الزيوت العطرة تتخذ فى ذلك الوقت من البنفسج، والنيلوفر، والنرجس، والكاردة، والسوسن، والزنبق، والمرسين، والمرزنجوش والبادرنك والنارنج .

كذلك اشتهرت مدينة « جور » فى جنوب فارس بصناعة العطور، ولكن كانت تتخذها من زهور غير الزهور المتقدمة مثل الورد، والطلع، والقيسوم، والزعفران، والخلاف، وكان ماء الورد ينقل من « جور » إلى سائر البلدان؛ فكان يحمل إلى الغرب، والأندلس، ومصر، واليمن، والهند، والصين .

واستحدثت الكوفة دهان الخيرى، وكانت تفوق سابور فى الخيرى والبنفسج .

٩- معقدات الفاكهة (المربى) : كان لأهل اليمن افتنان فى صناعة معقدات الفاكهة من إترج، وجزر ، وقرع، وخوخ، ونحوها، مما إذا شرع الجاهل فى أكله قضم بعض أنامله، كما كان لهم الشهد الجامد الذى يقطع بالسكاكين، وكان يهدى إلى العراق، ومكة، وغيرهما، ولهم فى عمله طريقة خاصة .

١٠- الورق : حدث انقلاب عظيم فى صناعة الورق فى القرنين الثالث والرابع الهجرى، وعطلت كواغيد سمرقند قراطيس مصر والجلود التى كان الأوائل يكتبون عليها؛ لأنها أحسن وأنعم وأوفق .

وأول من أشار بصنعه الفضل بن يحيى حينما طما بحر التأليف والتدوين، وكثر ترسيل السلطان، وصكوكه، وبلغت لإجادة في صناعته ما شاءت [1] .

وقد نقلت صناعة الكاغد عن الصين، وهو أجود أنواع الورق فى ذلك العهد، وقد ناله على أيدى المسلمين تغيير هام يعتبر حادثاً فى تاريخ العالم؛ فإن المسلمين نقوه مما كان يستعمل فى صناعته من ورق التوب، ومن الغاب الهندى . وكان فى القرن الثالث الهجرى يصنع ببلاد ما وراء النهر فقط، أما فى القرن الرابع، فقد انتشرت صناعته، وصارت له مصانع فى دمشق، وطبرية، وطرابلس الشام، ولكن سمرقند ظلت أكبر مركز لصناعته .

١١- الآلات الرياضية : اشتهرت مدينة حران [2] - لمركزها الدينى باعتبارها آخر مأوى لعبادة الكواكب - بصنع آلات القياس مثل الاسطرلابات، وغيرها من الآلات الرياضية الدقيقة، وكانت موازين حران مضرب الأمثال فى الدقة .

١٢- تجفيف السمك : كان يصاد من بحيرة «وان» (شمالى فارس) سمك صغير يعرف بالطريخ يملح، ويحمل إلى الجزيرة، والموصل، وحلب، وبلخ، وسائر الثغور .

أما فى المغرب، فكان يقوم مقامه السمك المسمى بالبن ويصاد من شواطئ الأندلس، وأفريقية، خصوصا سبتة .

١٣- طحن الحبوب : كانت الحبوب تطحن فى مطاحن مائية، أو هوائية، وكانت أكبر الأرحاء العائمة تقوم على نهر دجلة فى تكريت، والحديثة، وعكبرا،والبردان، وبغداد، والموصل، وكانت تصنع من الخشب والحديد، وتسمى عربة، وبكل عربة حجران أو أكثر يطحن كل حجر منها خمسين وقراً فى كل يوم، وكانت رحى البطريق فى بغداد أكبر رحى ؛ فقد كانت مائة حجر تغل فى كل سنة مائة ألف ألف درهم .

---

(١) مقدمة ابن خلدون جـ ٢ ص ٩٦٢ .

(٢) حران قصبة ديار مضر وهى مدينة عظيمة على طريق الموصل قريبة من الرها والرقة، وكانت منازل الصائبة - معجم البلدان لياقوت .

والأرحاء الهوائية كانت تسير بالهواء، ولها ثمانية أجنحة، وتكون بين عمودين بنفذ بينهما الهواء كالسهم، والأجنحة تقوم عمودية على قائم عمودى أيضاً طرفه الأسفل يحرك حجراً، فيدور هذا الحجر على حجر آخر، وكان من الممكن تنظيم سرعتها بواسطة منافس تعلق، وتفتح حسب الحاجة .

١٤ – الأخشاب : كانت الأخشاب كثيرة، وصناعاتها متنوعة؛ ففى خراسان خشب العرعر، وهو نوع جيد من الأخشاب استعمله أغنياء المسلمين فى بناء بيوتهم فى صدر الإسلام، وخشب الساج الهندى وهو أحسن ما يستعمل فى بناء البيوت فى المشرق كله، وكانت تصنع منه أدوات البيوت للسادة والكبراء .

وكانت أثاثات المنازل تصنع من خشب الخلنج، وهو خشب أبيض مائل إلى الحمرة، وكانت مدينة «قم» (بين أصبهان وسادة) تصدر الكراسى الجيدة .

١٥– البسط والسجاجيد : كان جمال المسكن فى الماضى يتلخص فى أن تكون حيطانه معلقاً عليها الستور الجميلة، وأن تكون أرضه مفروشة بالبسط .

ولهذا كانت صناعة البسط والسجاجيد منتشرة فى جميع البلاد .

واشتهرت فارس، وبخارى، وأرمينية بالفرش الصوفية، وكانت البسط الأرمينية مقدمة على غيرها، ومنها انتقلت إلى أزمير التى اشتهرت بصنع البسط فيما بعد .

وقد قال ماركو بولو: إن الفرش الأرمينية أجمل الفرش وأحسنها صناعة .

وكانت تصنع فى أسيوط – بصعيد مصر – فرش قرمزية تشبه الأرمينى .

* * *

التجـــارة

كان للعرب قبل الإسلام معرفة بالتجارة، وخبرة بها؛ ولها عندهم منزلة مرموقة، ولما جاء الإسلام، واتسعت الفتوحات، وارتقت الزراعة، والصناعة نشطت التجارة، واتسعت حتى أصبح للمسلمين صلات تجارية، مع معظم بلاد العالم، وامتدت تجارتهم إلى الشرق حتى وصلت إلى الفلبين والصين، وإلى الغرب حتى وصلت إلى بلاد الفرنجة، وإلى الجنوب حتى وصلت إلى نيجيريا، والحبشة، وسواحل أفريقيا، وإلى الشمال حتى وصلت إلى بلاد الروس التى ظلت إلى ما بعد الحروب الصليبية، هى الطريق بين شمالى أوربا والشرق .

وسرعان ما أصبح كثير من المدن الإسلامية مراكز حافلة بمظاهر التبادل التجارى البرى والبحرى، ومن أهم هذه المدن، بغداد، والبصرة والقاهرة، والإسكندرية، وسيراف، وأصفهان [١] . ومرافئ الشام كطرابلس، وصيدا، وبيروت .

وكانت الإسكندرية وبغداد هما اللتان تقرران الأسعار للعالم فى ذلك العصر فى البضائع الكمالية على الأقل [٢] .

ومما ساعد العرب فى رحلاتهم البحرية مهارتهم فى ركوب البحر، ومعرفتهم بالبوصلة، والانتفاع بها فتمكنوا « من ارتياد البحار فى جرأة ومهارة فائقة حتى ملكوا فى أيديهم زمام التجارة بين الشرق والغرب » [٣] ، حملت سفنهم، وقوافلهم المنسوجات والأطياب والبخور، والسكر والقطن وآنية الزجاج إلى أقاصى آسيا وإفريقية، وعادت منها محملة بالتوابل، والكافور، والحرير، من أقاصى القارة الآسيوية، والعاج، والأبنوس، والرقيق الأسود من القارة الإفريقية .

---

(١) بلغ من ازدهار المبادلات المالية والتجارية بها أنه كان بها مائتا صراف يجلسون جميعاً فى سوق يسمى الصرافين – آدم متز جـ ٢ ص ٣٧٥ .

(٢) المصدر السابق ص ٣٦٥

(٣) المجتمع العربى (نصيب العرب فى تقدم العلم والحضارة) ص ٤٧٤ للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور .

أثر التجارة :

أدى نشاط المسلمين التجارى إلى ابتكار بعض النظم المالية والتجارية التى عرفتها أوربا عنهم، وقد أثبت العالم جرسهوب أن أول من عرف نظام الحوالات المالية هم العرب، وعنهم أخذتها أوربا فى القرن العاشر عن طريق أسبانيا وإيطاليا [١] . وقال المستر كراندال : « وفى التجارة كان الإسلام رائد العالم الحديث فى إنشاء الاتحادات التجارية، واستعمال الشيكات، وخطابات الاعتماد، والإيصالات ووثائق الشحن »[٢] .

وفى العصر الذهبى للدولة العباسية « أنشأ التجار لأول مرة نقابة مسئولة عن مراقبة المعاملات التجارية، ومنع التدليس، وكان رئيسها ينتخب من بين الأعضاء الممتازين ويسمى « رئيس التجار » ، كما كان يسمى أعضاء النقابة « الأمناء »[٣] .

وقد استفاد المسلمون من تجارتهم – فضلا عن الغنى والثروة المالية – خبرة بشئون الحياة، ومعرفة بأخلاق الناس؛ وأصبحت التجارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى مظهر من مظاهر أبهة الإسلام وحضارته، ولها السيادة فى البلاد، وغدت سفن المسلمين، وقوافلهم تجوب كل البحار، واحتلت المكان الأول للتجارة العالمية [٤] .

وبذلك اضمحلت المكانة العالمية للتجارة اليهودية، وقد كانت تستأثر بأهم ما كانت تصدره أوربا، وخصوصا الغلمان والجوارى .

ونشأ عن هذا التقدم التجارى ازدهار الجاليات الإسلامية فى كثير من الأطراف التى تغلب عليها غير المسلمين، فكان يرأسهم مسلم، ولا يقبلون حكم غير المسلمين فيهم ..... ومن هذه الجاليات ما كان فى بلاد الخزر، والسرير، واللان، وغانة، وكوغة، والهند، والصين . بل وكوريا أيضاً [٥] .

---

(١) المصدر السابق ص ٤٧٥ .

(٢) راجع أثر الإسلام فى المسيحية نشرة أصدقاء الشرق الأوسط الأميريكية بنيويورك .

(٣) مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامى للسيد أمير على ص ٣٦١ .

(٤) آدم متز جـ ٢ ص ٣٦٥ .

(٥) المصدر السابق ص ٣٦٨ .

يقول السيد أمير على: «اخترع العرب البوصلة البحرية التى ساعدتهم على القيام برحلات إلى جميع أنحاء العالم، طلبا للعلم أو الاتجار، فأسسوا المستعمرات من شاطئ إفريقيا حتى جزائر الأرخبيل الهندى، وعلى سواحل الهند، وجزيرة مالايا، وتوغلوا فى بلاد الصين؛ وغدت البصرة ثغراً تجاريا هاما تتجر مع الهند، وكاتاى، واخترقت قوافلهم شمالى إفريقيا، وصحراءها عن طريق المغرب، ونقلوا لبضائع من ثغور البحر الأبيض المتوسط إلى أسبانيا، وصقلية، وإيطاليا، وفرنسا، وأصبحت طرابزون حلقة التجارة مع الدولة البيزنطية، ونشطت قوافل بغداد إلى أواسط آسيا، وشمال الهند بحذاء الخليج الفارسى، وامتدت تجارتهم إلى بحر قزوين، والبحر الأسود، وتغلغلوا فى روسيا حتى وصلت النقود العباسية إلى شواطئ البلطيق وداخل السويد (١).

* * *

(١) مختصر تاريخ العرب التمدن الإسلامى من / ٣٩٤ .

obeikandl.com

النظام المالى

تتطلب مصلحة كل دولة أن يكون لها نظام مالى تسير عليه، وقد راعت الدولة الإسلامية ذلك فأنشأت بيتا للمال يقوم على رعاية مصالحها، وهو يشبه وزارة المالية فى وقتنا الحاضر، والقائم عليه يشبه وزير المالية .

ولبيت المال حقوق وعليه واجبات، فكل ما يستحقه المسلمون ولم يتعين مالكه منهم؛ فهو حق من حقوق بيت المال، وكل ما وجب صرفه فى مصالح المسلمين فهو حق على بيت المال . ولبيت المال موارد هى: الصدقة والغنيمة والفيء [1] .

وهذه الموارد قسمان: موارد دورية تجبى فى أوقات معينة من كل عام كالزكاة والجزية، وموارد غير دورية كخمس الغنائم والركاز .

الصدقة :

الصدقة أو الزكاة ما يؤخذ من أغنياء المسلمين ليرد على فقرائهم، وقد بينا فيما سبق بعض مالها من آثار جليلة للمجتمع، وأن من مظاهرها التكافل الاجتماعى، والأخوة الإنسانية . ومصادرها : السوائم (الإبل، والبقر، والغنم) والفضة والذهب، وعروض التجارة، والزروع والثمار، وقد بينت الشريعة لكل ذلك نصابا معينا لا تجب الزكاة فيما دونه، وقدرا معيناً لا يؤخذ فوقه، ومصرفها ما ذكر فى قوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ**

---

(١) قال القرطبى فى تفسير قوله تعالى : ﴿ **مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ** ﴾ الأموال التى للأئمة والولاة فيها مدخل ثلاثة أضرب :

١- ما أخذ من المسلمين على طريق التطهير لهم، كالصدقات والزكوات .

٢- والثانى الغنائم وهو ما يحصل فى أيدى المسلمين من أموال الكفار بالحرب والقهر والغلبة.

٣- والثالث الفيء؛ وهو ما رجع للمسلمين من أموال الكفار عفواً صفواً من غير قتال ولا إيجاف كالصلح، والجزية، والخراج، والعشور المأخوذ من تجار الكفار ... جـ١٨ ص ١١٤ ، الأحكام السلطانية ص ١٨٧ .

﴿لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠] .

ولعل فى وصية النبى ﷺ لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن جماع القول لخصائص الزكاة .

أخرج البخارى بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ لمعاذ ابن جبل حين بعثه إلى اليمن: «إنك ستأتى قوما أهل كتاب؛ فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فإن هم أطاعوا لك بذلك؛ فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات فى كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لك بذلك؛ فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم؛ فإن هم أطاعوا لك بذلك فإياك وكرائم أموالهم ... [١] .

ويؤخذ من هذه الوصية أن الزكاة :

١- تؤخذ من الأغنياء لترد على الفقراء .

٢- أنها تؤخذ فى إنصاف؛ فلا تؤخذ كرائم الأموال وخيارها .

الغنيمة :

الغنيمة ما يغنمه المسلمون ويأخذونه من أموال الكفار بالقتال والجهاد فى سبيل الله [٢] وهى أنواع أسرى، وسبى، وأموال منقولة، وأرضين على خلاف [٣] فيها، فالأسرى هم المقاتلون الذين يقعون فى الأسر، والسبى هم النساء الأطفال الذين يقعون فى أيدى المسلمين، ولا يجوز أن يقتلوا، ويكونون سبياً مسترقاً يقسمون مع الغنائم، ويجوز قبول الفدية منهم، والأموال المنقولة هى ما يمكن نقله كالنقود، والماشية .

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الزكاة فى غير موضع .

(٢) ذكرها الله فى سورة الأنفال التى أنزلها فى غزوة بدر، وسماها أنفالا لأنها زيادة فى أموال المسلمين - السياسة الشرعية لابن تيمية ص ٣١ ، القرطبى ج ١٨ ص ١٤ ، كتاب الاختيار فى مذهب الأحناف جـ ٣ ص ٨١ .

(٣) اختلف الأئمة فى الأرض التى ملكها المسلمون من المشركين عنوة وقهراً؛ فقال الشافعى: إنها غنيمة تقسم بين الغانمين، وتكون أرض عشر لا يجوز أن يوضع عليها خراج، وقال مالك: هى وقف على المسلمين بخراج يوضع عليها، وقال أبو حنيفة: يخير الإمام بين الأمرين، وراجع الأحكام السلطانية للماوردى ص ١٢٢ . ١٣١ .

والواجب فى المغنم تخميسه وصرف الخمس إلى من ذكرهم الله تعالى بقوله : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ [الأنفال : ٤١]، وقسمة الأربعة الأخماس الباقية بين الغانمين.

الفيء : (١)

الفيء هو « كل مال وصل من المشركين عفواً من غير قتال، ولا بإيجاف خيل ولا ركاب » ويدخل فيه الجزية والخراج والأعشار وغيرها .

الجزية : (٢)

ما كان يوضع على رءوس أهل الذمة . وهى تؤخذ من الرجال القادرين لا ممن يتصدق عليهم، ولا ممن لا قدرة له على العمل، وكانوا يقدرونها حسب أحوال أهل الذمة غنى وفقراً، لكن لا تزيد على ثمانية وأربعين درهماً . ولا تنقص عن اثنى عشر درهماً فى السنة، وكانت تؤدى منجمة، وتسقط بالإسلام .

وتقبل من غير المسلمين أيًّا كانوا إلا إذا كانوا من العرب عبدة الأوثان، أو من المرتدين فهؤلاء لا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف، أما غيرهم من النصارى، واليهود، والمجوس،وعباد الأوثان من العجم، فيقبل منهم الإسلام، أو الجزية، أو السيف . والجزية بدل عن القتل أو القتال فدافعها لا يقتل، ولا يدعى إلى قتال، وهو آمن على نفسه وماله .

---

(١) سمى فيئاً لأن الله أفاءه على المسلمين أى رده عليهم من الكفار – السياسة الشرعية لابن تيمية ص ٤٠ .

(٢) « الجزية والخراج حقان أوصل الله سبحانه وتعالى المسلمين إليهما من المشركين يجتمعان من ثلاثة أوجه ويفترقان من ثلاثة أوجه، ثم تتفرع أحكامهما؛ فأما الأوجه التى يجتمعان فيها فأحدها أن كل واحد منهما ماخوذ عن مشرك صغاراً له وذلة، والثانى أنهما مالا فيء يصرفان فى أهل الفيء، والثالث أنهما يجبيان بحلول الحول ولا يستحقان قبله . وأما الأوجه التى يفترقان فيها فأحدها أن الجزية نص وأن الخراج اجتهاد، والثانى أن أقل الجزية مقدر بالشرع، وأكثرها مقدر بالاجتهاد، والخراج أقله وأكثره مقدر بالاجتهاد، والثالث أن الجزية تؤخذ مع بقاء الكفر وتسقط بحدوث الإسلام، والخراج يؤخذ مع الكفر والإسلام » – الأحكام السلطانية ١٢٦ .

الخراج: وهو ما كان يوضع على الأراضى التى فتحت عنوة، ثم تركت بأيدى أصحابها على أن يؤدوا عنها الخراج [١] .

ومما يدخل تحت الخراج ويعتبر من موارد بيت المال فى الإسلام أعشار التجارة [٢] وأخماس المعادن، والمراعى والضياع، وأثمان المياه، وما يوضع على الملاحات والآجام وغيرها مما يعد من قبيل الخراج .

مصاريف بيت المال :

كان من موارد بيت المال ما ينفق فى مصالح المسلمين ومرافقهم العامة ومن أهم هذه المصالح :

١- أرزاق القضاة، والولاة، والعمال ومن إليهم .

٢- أعطيات الجند، وما يحتاجون إليه من وسائل الحرب .

٣- المنافع العامة، ككرى الأنهار، وحفر الآبار، وإصلاح الطرق .

٤- نفقة المسجونين، وأسرى المشركين .

٥- العطايا، والمنح للأدباء والعلماء .

---

(١) كل أرض أسلم أهلها عليها، أو فتحت عنوة، وقسمت بين الغانمين، فهى عشرية، وما فتح عنوة وأقر الإمام أهلها عليها أو صالحهم فهى خراجية سوى مكة شرفها الله تعالى، الاختيار فى مذهب الأحناف جـ٣ ص ٩٧ ، وراجع الخراج للقاضى أبى يوسف ص ٢٩ ط الأميرية .

(٢) أصل ذلك فى الإسلام أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه بلغه أن تجارا من المسلمين يأتون أرض الحرب فيأخذون منهم العشر فكتب إلى أبى موسى وهو على البصرة أن خذ من كل تاجر يمر بك من المسلمين من كل مائتى درهم خمسة دراهم، وخذ من كل تاجر من تجار العهد يعنى أهل الذمة من كل عشرين درهما درهما، ومن تجار الحرب من كل عشرة دراهم درهما – الخطط للمقريزى جـ ١ ص ١٠٣ وراجع الخراج لأبى يوسف ص ١٣٥ ط السلفية، وفيه أيضا أن أهل منبج – قوم من أهل الحرب – وراء البحر كتبوا إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه « دعنا ندخل أرضك تجارا وتعشرنا » فشاور عمر أصحاب رسول الله ﷺ فأشاروا عليه به؛ فكانوا أول من عشر من أهل الحرب .

وكانت نفقات كل إقليم من أرزاق العمال، وطرق الإصلاح، وشق الترع وإقامة الجسور وما إلى ذلك تؤخذ من خراج الإقليم، وما يتبقى يرسل إلى المدينة فيوزع على المسلمين وهذا هو العطاء .

وكان أبو بكر يسوى بين الناس فى العطاء، وأما عمر ففضل بينهم بحسب سابقتهم، وبلائهم فى نصرة الدين، أو القرابة من رسول الله ﷺ ، ففرض لكل واحدة من زواج النبى ﷺ عشرة آلاف درهم، وفرض للعباس سبعة آلاف درهم، وفرض لكل من شهد بدراً من المهاجرين الأولين خمسة آلاف درهم، وفرض لنفسه معهم خمسة آلاف درهم، وفرض لكل من شهداء بدر من الأنصار أربعة آلاف درهم، وفرض لكل من هاجر قبل الفتح ثلاثة آلاف درهم، ولمن أسلم بعد الفتح ألفى درهم .. ثم فرض للناس على منازلهم وقراءتهم القرآن، وجهادهم، وتفصيل ذلك مذكور فى مواضعه[1].

* * *

(١) راجع كتاب الخراج للقاضى أبى يوسف ص ٢٤ – ٢٦ الأميرية، سيرة عمر بن الخطاب لابن الجوزى ص ٥٣ ، الأحكام السلطانية ١٧٦ ، ١٧٧ .

obeikandl.com